٤٩٨

12

سلسلة مصر الحضارة

أقدم ثورة فى التاريخ

بقلم

بسام الشماع

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٤٣٤
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7722-5

٣٠ / ٢٠١١ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)

تصميم الغلاف

منـال بـدران

تنفيذ المتن والغلاف

بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع .

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقدمة:

التَّاريخُ يعيدُ نفسَـهُ، عبارةٌ تتردَّدُ علـى أسماعِنَا كثيرًا ونقرؤهَا فى العديدِ من الكتبِ، وهَا هىَ ذى تُثْبتُ نفسَهَا من جديدٍ مع اندلاعِ ثورةِ ٢٥ يناير عَام ٢٠١١م.

وكمَا علَّمَ الشـعبُ المصرىُّ المتحضِّرُ العالَمَ أجمعَ علومَ الطِّبِّ والفلكِ والهندسَـةِ والبنَاءِ والرِّياضةِ والشِّـعرِ والفنونِ والقانونِ وغيرِهَا من القيـمِ والأخْلاقِ والعلومِ المفيدةِ، فقد علَّمت الحضَارةُ المصريَّةُ القديمةُ الحضَاراتِ الأخرَى فكرَةَ الثَّورةِ ومبَادئها السَّـامية، وعقيدةَ تغييرِ الأوضـاعِ الخَاطئةِ والتعبيرَ عن الرَّأى بحريَّةٍ ورفْض تقييد الحرياتِ ونَبذ الظُّلم والقضَاء على الفسادِ.

علَى مرِّ التَّاريخ المصرىِّ وثَّق المصرىُّ – والعالَمُ معهُ – أحداثًا ثوريَّة تصبو إلى التَّغييرِ وتبحثُ عن حياةٍ أفضَل ومستوى معيشىٍّ أرْقى.

وحسنًا فعلَ بعضُ المؤرِّخينَ عندمَا وصفوا الشَّخصية المصريَّة بأنَّها تُشـبهُ نهرَ النيلِ العظيم، فهى رومانسـيَّةٌ وهادئـةٌ ومحبةٌ لأرضِ وطنِهَـا ومفيدةٌ لبلدِهَـا، ولكنى أضيف أيضًا أن نهـرَ النيلِ بمياهِهِ العذبةِ الغنيَّـةِ بالطَّمى المُخصِّب المفيدِ، يجـرى ويتقدَّم بلا توقُّفٍ، يتحدَّى الصَّخرَ ويحفرُ فيه ممراتٍ لهُ لكى يكملَ مسـيرتَهُ الَّتى شاء اللهُ سـبحانَه وتعالى لَه السَّـيَر فيهَا، وهـو أيضًا يجرى من الجنوبِ

إلى الشَّمال، مختلفًا عن أغلبيةِ أنهارِ العالَمِ الَّتى تجرى من الشَّمالِ صوبَ الجنوبِ، وهوَ أيضًا يغضبُ ويفيضُ فيضانًا هادرًا ولا يُروَّضُ.

أثبتتْ الأحداثُ التَّاريخيَّة شجاعةَ الإنسانِ المصرىِّ قديمًا وحديثًا، فقد ثارَ ضد نظامِ الملكِ «ببى الثَّانى - نفر - كا - رع» والَّذى حكمَ حوالى ٩٤ عامًا (من عَام ٢٢٧٨ ق.م إلى ٢١٨٤ ق.م). تبوَّأ العرشَ وهو فى السَّادسة من عمرِهِ وتُوفى عن عمرٍ يناهزُ المائةَ تقريبًا. هذهِ الثَّورةُ هى ما أطلقت عليه المصادرُ التَّاريخيةُ «الثورةُ الاجتماعيَّةُ»، حيثُ هبَّتْ جموعُ المصريينَ رافضينَ الفسَادَ والوهَن الحكومىَّ وطولَ مدةِ الحكمِ.

ثمَّ هبُّوا مرةً أخرى ثائرينَ ضد العدوِ الهكسوسىِّ الَّذى غزَا مصرَ وحكمَ شمَالهَا منذُ عَام ١٦٥٠ إلى عَام ١٥٥٠ قبلَ الميلادِ تقريبًا، وتخلَّص منهم بعدَ معَارك عسكريَّةٍ عديدةٍ.

ثُمَّ يبنى ويشيِّدُ مملكةً أطلق عليها «الدولة الحديثة» أبهرتْ ومازالتْ تبهرُ العالمَ. ولكن يعودَ عمالُ الملكِ بغربِ الأقْصرِ ليثوروا ضدَ الأوضَاعِ الفاسدةِ فى بعضِ الإدارَاتِ الحكوميَّة فى زمنِ حكمِ الملكِ رمسيس الثَّالث (حكمَ من عَام ١١٨٤ إلى عَام ١١٥٣ ق.م)، وهوَ موضوعُ هذاَ الكتابِ.

ويفاجئُ المصرىُّ القديمُ العالَمَ مرةً أخرى بحركةٍ ثوريَّةٍ وطنيَّةٍ ضدَ الحكمِ الفارسىِّ الأجنبىِّ فى وقتِ حكمِ الملكِ «دارا» وابنه «اكزركزس» من بعدهِ. («دارا» حكم من عام ٥٢٢ إلى عام ٤٨٦ق.م وابنه حكم من ٤٨٦ إلى ٤٦٥ ق.م)، وفى خلال الأحداثِ المثيرةِ يظهرُ علَى صفحاتِ تاريخِنَا المجيدِ شخصيَّةٌ

مصريَّةٌ قادتْ الثَّـورةَ للتخلُّصِ من الفرسِ اسمُه «خبا – باشـا» و رُبَّما يكونُ قد حكم من عَام ٣٣٩ إلى عَام ٣٣٨ ق.م، من عاصمة «منف» (ميـت رهينة بالجيـزة) واتخذ لقب المختَـار من قِبَلِ الـرَّبِّ بتاح – تانن الأسـطوريِّ، وقد ذكرتْ نصوصٌ إغريقيَّةٌ بطلميةٌ أن «خبا – باشـا» كان يقومُ بالمرورِ على نقاطِ الدِّفـاعِ الحصينةِ. ويعتقدُ بعضُ العلمَاءِ الأجلَّاءِ أن «خبا – باشـا» كانَ من أصلٍ نوبيٍّ عظيـم.

رمسيس الثالث
بمعبد خونسو بمعابد الكرنك

وتسـتمرُّ الثَّورات المصريَّةُ ضدَّ الطُّغيانِ فى عصـورٍ لاحقةٍ فـى أزمنـةِ الاحتلالِ اليونانـيِّ والرُّومانـى، ثـم فـى العصـورِ الحديثة ضِدَّ الاحتلالِ الفرنسـيِّ والإنجليزيِّ، ثـم ضدَّ الملكِ فَاروق وبطانتِهِ الفَاسدة بثورةِ ٢٣ يوليو ١٩٥٢م المجيدةِ بقيَادة الضُّباطِ الأحرارِ وانتهاءً بثورةِ الشَّباب والشَّعب فى عَام ٢٠١١ يوم ٢٥ يناير.

إن الشَّـعب المصرىَّ لا يَكِلُّ ولا يَملُّ عندمَـا تأتى الأمورُ لحرياتهِ وحقوقِهِ، فعندمَـا يبـدو للبعضِ أنَّه قد اسـتكانَ وانزوىَ إلى ركنٍ هـادئٍ تجدُه يتعمْلق ويفاجئُ العالَمَ برفضِهِ للظُّلم.

معبد مدينة هابو وما حوله من أراضٍ كانت مواقع للثوار

دعونـــى اصطحبُكـــم إلى رحلةٍ عبَر صفحاتِ التَّاريخِ لنســـتحضرَ معًا ذكرى ثورةِ العمَالِ فى غرب الأقصرِ إبَّان زمنِ الأسرةِ العشرين، تلك الذكرى العَطرة الَّتى تتماثلُ بشـــكلٍ مثيرٍ مع أحداثِ ٢٥ يناير ٢٠١١م. أحســـنَ القائلُ عندما أكَّد: «التَّاريخُ يعيدُ نفسَهُ».

ثورةُ المصريينَ القدماءِ عَام ١١٥٥ قبلَ الميلادِ:

وقعـــتْ أحداثُ هـــذهِ الثورةِ فى غـــربِ مَدينة الأقصرِ فى زمـــن حكم الملكِ رمســـيس الثَّالث. وأجدُ أنَّه من المهم هنا أن أعرِّفكم على هذا الملكِ وإنجازَاتِه وكيفَ كانَ حكمُه فى نهايةِ حياتِهِ.

الملك رمسيس الثالث أمام الأرباب الأسطوريين – بردية هاريس

رمسيس الثالث..... بطَاقة شخصيَّة:

اسمُه بالكاملِ وألقَابه: الملكُ «أوسر ماعت رع ميرى آمون» وتعنى (ملكَ مصرَ العُليا والسُّفلى، سيدَ القطرينِ رع المفعم بماعت، من يحبُّه آمون). رمسيس الثالث، حورس الذَّهبى، و مك كمت وعف خاسوت (أى الَّذى يقومُ بحمايةِ مصرَ ويُخْضِعُ الدُّولَ الأجنبيَّةَ)، وهوَ أيضًا رمسيس حقا إيونو أى رع صور الَّذى أنجبَ حاكم أون (و أون هى هيليوبوليس القديمةُ، المطريَّة الآنَ).

والدتُه: تى ميرن إيست.

والدُه: ست – نخت.

زوجتُه: إيست وأنجبتْ لَه رمسيس الرابع «آمون حر خوبشف» رمسيس السادس. وله أبناءٌ وبناتٌ كثيرون.

اعتلى عرش مصر:

فى اليومِ السَّـادس والعشـرين من أول أشْـهرِ فصلِ «شمو» (الرَّبيع وبدايةِ الصَّيف والحصَاد)، بالعَام الثَّانى أو الثَّالث من حكمِ «ست – نخت».

مدةُ حكمه: من عَام ١١٨٤ إلى عَام ١١٥٣ ق.م.

حروبُـه: هزمَ بجيوشِـهِ المصريَّة الشُّـجاعة كلاً من الليبيِّين وشـعوبِ البحرِ وتحالفَاتِهم القويَّةِ بالمنطقةِ والآسْيويين.

مدينة هابو – معبد رمسيس الثالث غرب الأقصر

انشاءاتُ:

معَابـد بالكرنكِ والأَقْصُرِ ومدينةِ هابو بغـربِ الأُقصرِ، وهليوبولس ومنف وبمعبدِ خنوم (ربِّ تشـكيلِ البشرِ الأسطوريِّ وكانَ أيضًا له علاقةٌ دينيَّة بنهرِ النِّيل وشـلالاتِهِ) بجزيرةِ الفنتين بأسـوان، وقفط، وأبيـدوس، وعملَ بعضِ

التَّجديـدات بمدينة أسـيوط، ولَهُ نصـوصٌ قديمةٌ بمنطقـة الأشْمونين بالمنيَا، والفيوم وأطفيح بالضَّفة الشَّـرقية لنهرِ النِّيلِ، وكانَ لهُ مقَار عديدةٌ بالشَّـرقيةِ ونقوشٌ فى معبد سرَابيط الخَادم بسيناءَ العظيمةِ.

الوفـاةُ: تُوُفِيَ فى يوم ١٥ من الشَّـهر الثَّالث من فصل «شمو»، فى العَام الثَّانى والثَّلاثين من حكمِهِ، عن عمرٍ يُناهزُ السَّبعينَ عامًا تقريبًا.

المومياءُ: تمَّ اكتشـافُها فى عام ١٨٨١م بخبيئةِ الدَّيـرِ البَحرى بغربِ الأَقْصرِ بالقربِ من معبدِ الملكةِ حاتشبسوت.

المقـبرةُ: رقم ١١ بوادى الملوكِ بغربِ الأُقصـر. لتابوتِهِ غطَاءٌ بديعٌ نُحتَتْ عليهِ تماثيلُ وأشـكالٌ لهُ وللرَّبتينِ الأسطوريتيْنِ إيسـت (إيزيس) ونفتيس. الغطاءُ موجودٌ الآن بمُتحفِ «فتزوليام» بكمبريدج بإنجلترا، ويطالبُ المؤلفُ برجوعِهِ إلى أرضِ الوطن «مصرَ».

أبطالُ الثَّورةِ:

كانَ العمالُ أبطالُ الثَّورةِ يعملونَ عند الملكِ رمسيس الثالثِ كرسَّامين ونحَّاتين وغير ذلكَ من الحرفِ الَّتى تَحتاجُ إلى مهارةٍ وفنٍّ وخبرةٍ وحِنْكة. ومن هنَا نستطيعُ أن نستنتجَ أنَّهم كَانوا أرْقى حرفيينَ فى مصرَ فى ذلكَ الوقتِ. وقد شُيدتْ لهؤلاءِ العمـالِ المجتهديـنَ مدينةٌ يقطنونَ فيهَا ليكونوا قريبـينَ لوادى الملوكِ، حيثُ عملُهم فى مقبرةِ الملـكِ، ويكونوا أيضًا غيرَ بعيدين عن المعَابد والمقَاصير الدِّينية بغرب الأَقْصُر. أُطلِقَ علَى هذهِ المدينةِ المُصغَّرة اسمُ «ديرُ المدينةِ».

ديرُ المدينةِ:

منظر من أعلى يظهر المنازل والمعابد بدير المدينة

شـيدتْ هذهِ المدينـةُ فى عصرِ الملـكِ تحتمسِ الأوَّل فى عـام ١٥٠٦م ق.م تقريبًا، واستمرتْ تؤوى هؤلاء العمال المجديـن وعائلاتهم حتَّى عَصرِ الملوكِ الرعامسة، وبالتَّحديد فى عهد رمسيس الحادى عشر وكانتْ مهمةُ هؤلاء العمال تنتهى ويهجرون المدينة بانتهاء العمل فى مقبرته بِوَادى الملوكِ. تمَّ الدراسةُ والكشفُ عن حَوالى ٦٨ منزلًا فى «دير المدينة»[١].

سنندجيم يقود محراثة - منظم من مقبرته - دير المدينة

(١) تم تشييد معبد لبطليموس الرابع بجانب المدينة فى وقت لاحق تحوَّل إلى دير مسيحىٍّ، وهوَ مَا أعطَى المكانَ هذا الاسم. كان الدَّيرُ مكرسًا لإيزادورا الملقبة بالشَّهيدة فى الموروث المسيحىِّ.

كانتْ للمدينةِ جبانةٌ مُلاصقةٌ حيثُ تمَ اكتشافُ مقابرَ عديدة بها رسومات ونصوصٌ مُلونةٌ بديعةٌ مثل مقابر المدعوين «سينيجيم» و «باشيدي» وابن موسى «أنحيرخو». كانَ بالمدينةِ خمسةُ شوارعَ رئيسيَّةٌ، وكانَ للعمال نظام خاص بعلاجِ الأمراضِ وصرفِ الرُّوشتات الطِّبية وكانَ لديهم محكمة خاصة بهم لتفصلَ فى القضايا وتحل المُشكلات الَّتى قد تنجمُ عن العلاقاتِ الاجتماعيَّة اللصيقةِ لأنَّهم كانوا يعيشونَ بالقربِ من بعضِهم البعضِ.

فرقة الميدجاى القوية – المتحف المصرى

أمَّا عن الأمنِ فقد كانَ المسئولُ عنهُ هوَ فرقةَ من الـ «ميدجاى» الشُّرطيَّة النوبيَّة القويَّة. كانَ يُطلقُ على دير المدينةِ بالهيروغليفية «ست – ماغت» بمعنى «مكان الحقيقةِ»، وكانَ العاملُ الَّذى ينتمى إليها يُسمى «الخادمُ فى مكان الحقيقةِ».

وتقعُ المدينةُ شمال شرقِ وادى الملكاتِ، وفى نهايةِ عصر الملكِ رمسيس الثَّانى كان هناك ٣٢ عاملًا وقد زادَ العددُ فى عَصرِ الملكِ رمسيس الرَّابع إلى ١٢٠ عاملًا.

أسبابُ الثَّورة: رُبَّما يكونُ هناكَ أكثرُ من سببٍ لقيامِ هذه الانتفاضةِ العُماليَّة الَّتى رغمَ محليتِها وعدمِ انتشارِها فى كلِّ أرجاءِ مصرَ إلَّا أنَّها كانتْ مؤثرةً لحدٍّ كبيرٍ علَى مُجرياتِ الأمورِ السِّياسيَّة والاجتماعيَّة فى ذلكَ الوقتِ.

من أسبابِ قيامِ الثَّورةِ:

١ – عَدم صرفِ مرتباتِ ومقرَّراتِ العمالِ لمدةٍ طَويلةٍ وصلتْ إلى ثَمانية عشَر يومًا[1]. و كانتْ علَى شكلِ بذورٍ تُعطى للعمَالِ فى يومِ ٢٨ من نهاية كلِّ شهرٍ. وكانَ الشَّهرُ عندِ المصرىِّ القديمِ ثلاثينَ يومًا.

٢ – ازْديادُ عددِ العُمالِ فى فترةِ حكمِ رمسيس الثَّالث، ممَّا قلَّلَ من المُقرَّراتِ الَّتى كانتْ تُصرفُ للعمالِ.

منظرٌ من أعلَى الجبلِ لمدينةِ العمالِ

٣ – بدأتْ الثورة على شكل إضرابٍ عُمالىٍّ عن العملِ فى أواخرِ العامِ التَّاسع والعشرين من حُكمِ الملكِ، وبالتَّحديد فى اليومِ العاشرِ من الشَّهرِ الثَّانى لفصلِ «برت» (فصلِ الشِّتاء، ورُبَّما لهذهِ الكلمةِ علاقةٌ بكلمةِ «برد» وهو

---

(١) لاحظْ عزيزى القارئَ تَماثُلَ هذا الرَّقم مع عددِ الأيام الَّذى حدثَ فيهِ أحداثُ ثورةِ ٢٥ يناير والتَّى استمرتْ حتَّى ١١ فبراير.

مَا نشعرُ بهِ فى فصلِ الشِّتاء لبرودةِ الجوِّ)، هذاَ التَّوقيتُ يجىءُ قُبيلَ مدةٍ وجيزةٍ من احتفَالِ الملكِ باليوبيل الثَّلاثينى المُسمى بعيد «سد».

خلالَ هـذا الاحتفالِ المَهيبِ المُكلِّفِ جدًّا تتمُّ الطُّقوس والمراسيم الدِّينية الَّتى تُجدِّد سلطةَ الملكِ وقوتَه وهيمنتَه على الأمورِ، حيثُ إنَّه يُثبتُ من خلالِ النَّشاطاتِ الرِّياضية الَّتى يقومُ بهَا أثناءَ الاحتفالِ أنَّه مازالَ قادرًا جسمانيًا وذهنيًا على قيادةِ البلادِ لمدةٍ مُحدَّدةٍ مستقبليَّة. ورُبَّما تكونُ كلُّ هذهِ التَّكاليف البَاهظة الَّتى كانتْ تُصرفُ على هذه الاحتفالاتِ سببًا من الأسبابِ الَّتى أدَّتْ إلى نقصِ البذورِ المُقررة للعمالِ.

٤ – ظُهور حالاتٍ لفَسادٍ حكومىٍّ حتَّى قبلَ هـذهِ الثورةِ بدايةً من خَلعِ لقبِ «الوزير الأوحد» علَى المدعو «تو»، ثمَّ بعدَ مدَّةٍ يتغَّير الشِّعار الثَّورى من شعَار «نحنُ جوعَى» إلى عبارةٍ مُوجَّهةٌ من العمالِ الثَّوريين إلى المفتِّش المسئول وهىَ: «إنَّنا لمْ نُضْرِبْ عن العمِل بسببِ الجوعِ. ولكنَّنا فعلنَا ذلكَ لأن لدينَا اتهاماتٍ خطيرةً نريدُ توجيهَها: هناكَ فَسادٌ شديدٌ بذاكَ الموقعِ الخاصِّ بالملكِ[1]».

أحداثُ الثَّورة:

خـرجَ العمالُ ذات يوم تَاركين بيوتَهـم بدير المدينةِ وبهَا زوجاتُهم وأولادُهم صارخينَ و معترضينَ قائلينَ: «نحنُ جوعىَ، نحنُ جوعىَ» ورغمَ أنَّه كان هناكَ مراكزُ شُـرطة وحراسـةٌ مُخصصةٌ لحمايةِ المدينةِ، وقد كانتْ منتشـرةً بغربِ

(١) كتابُ رمسيس الثَّالث «قَاهر شعوب البحر». تَأليف «بيير جراندييه». ترْجمة: فاطمة عبد الله محمود. الألف كتاب الثانى. الهيْئة المصريَّة العَامة للكتابِ.

طيبة لأهميـــةِ المقابرِ والمعابدِ الموجودةِ بها، ومَا بهَا من نفائسَ قيمةٍ وغاليـة. وقــد كانَ هناكَ رئيسٌ للشــرطةِ يُدْعــىَ «منتو - مس» يديــرُ العمليَّةَ الأمنيَّة بالمنطقــةِ وقد لعــبَ دوَرًا هامًا فى مجريَــاتِ أمورِ هذه الثَّــورةِ المُنظمةِ، إلَا أن العمَالَ الغَاضبينَ، والذينَ فاضَ بهم الكيلُ، لمْ يكترِثوا لكلِّ هذهِ النقطِ الحصينةِ فتعدوْهــا واخترقوهَا ممَّا يجعلْنا نعتقدُ أن عددَ العمال لمْ يكن بالقليلِ. أو رُبَّما أتيحَ لهم المرورُ من نقطِ الحراسةِ للتَّعبيرِ عن غضبِهم.

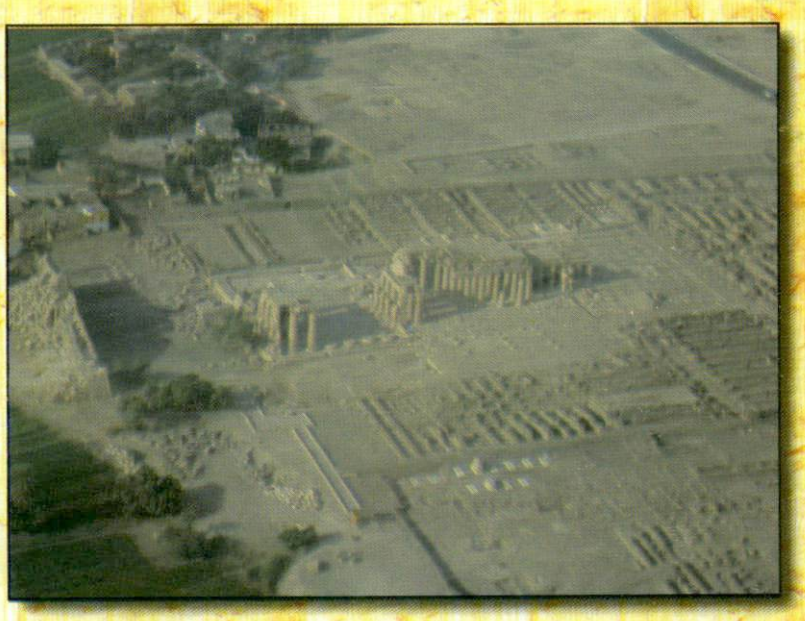

أحدُ المواقعِ التِى شهدتْ الثَّورةَ - معبد الرمسيوم

اتجهتْ جمــوعُ العمالِ الثائريــن إلى مدينةِ هابو. وهو تحــركٌ ذكىٌ منهم لأنَ هذاَ المعبدَ هو أكبرُ معابد رمســيس الثَّالــث. وبالتالى يكونُ تأثيرُ وجودِهم بــهِ أو حتَّى بجانبهِ تأثــيرًا كبيرًا. والتأثير الأكبرُ والأكثــرُ عمقًا أن قصرَ الملكِ

رمسيس الثَّالث ملاصق للجهةِ الجنوبيَّة للمعبدِ، وبالتَّالى يمكنُ للعمَالِ الثَّائرين إسماعَ الملكِ أصواتِهم وطلباتِهم لو كانَ موجودًا فى هذا المقرِّ[1]، أو إسمَاع وزرائِه وعمالِ بلاطِه أو أفرادِ أسـرَته صرخاتِهـم. وقد وصلتْ الأمورُ إلى ذروتِهَا عندمَا اقتحـمَ العمالُ بوَّاباتِ معبدِ مدينةِ هابو، وقـد اتَّجهوا بعدَ ذلكَ إلى معبدِ الملكِ «تحتمس الثَّالث». كانتْ الأخبارُ قد وصلتْ إلى رؤسـاءِ العمَالِ والمفتِّشين وكاتبِ المقبرةِ (وهوَ من الشَّـخصيات المهمةِ) الَّذى يُدعى «آمون نخت بن إبوى» ويرجعُ لهُ الفضلُ فى توثيقِ أحداثِ الثَّـوراتِ المتواليةِ والإضراباتِ المنظمةِ. وقد ذَهبوا إليْهم فى محاولةٍ لإثنَائِهم عن الإضرابِ والهيَاجِ والثَّورة وذلكَ خشيةَ أن ينفلتَ زِمَامُ الأمورِ، واعدينَ إيَّاهم بتوصيلِ صوتِهم وطلباتِهم إلى الملكِ.

وفـى اليوم التَّالى، وبعدَ أن أقنعَهم رئيسُـهم بالرجوعِ إلى بيوتِهم بعدَ أن تمَّ توزيعُ الفطائرِ والحلوى عليهم، عَادوا ليثُوروا ويُضْربوا مرةً أخرىَ فتمَّ استدعاءُ رئيسِ الشُّـرطة الَّذى جاءَ متحمِّسًـا صارخًا فى العمال قائلًا: «توقَّفوا عن ذلكَ. وغادروا هذا المكانَ..». ويجبُ هنا أن نفسِّرَ عصبيَّةَ رئيسِ الشُّرطةِ:

أولًا: لأن وجـودَ الثُّوار داخلَ سـاحةِ معبدِ «الرمسـيوم» (للملكِ رمسـيس الثَّانى) شـىءٌ خطيرٌ و غريبٌ علَى العـادةِ المصريَّـةِ الملكيَّة القديمةِ والَّتى تُملى بعدمِ السَّماحِ بدخولِ عامةِ الشَّعبِ المعبدِ ولذلكَ كانتْ هذه الحالةُ تعتبرُ استثناءً سوفَ يثيرُ استياءَ الملكِ والبلاطِ الملكىِّ بلا شكٍّ.

(١) كانَ للملكِ رمسيس الثَّالث أكثرُ من مقرٍّ، وعددٌ كبيرٌ من القصورِ الملكيةِ فى أنحاءِ مصرَ.

وثانيًا: إن وجودَ العمالِ الثَّائرين فى هذه السـاحةِ يجعلُهم قريبينَ من شُونِ ومخَـازن الغلالِ والبذورِ الَّتى يمتلكُها المعبدُ كحصيلـةِ الضَّرائب الَّتى يدفعُها الفلاحونَ وغيرُهم من المواطنينَ إلى إدارةِ جمعِ الضَّرائب الحكوميةِ.

ولقد كانَ فى مصرَ القديمةِ وظيفةٌ لقبُها «رئيسُ التَّسـعير» وهىَ أقربُ إلى وزير التموينِ فى عصرِنا الحديثِ، فهوَ الَّذى يتحكَّم فى شُـونِ البذور ويضعَ الأسـعارَ على البضَائـع. وعندمَا لمْ يكترثْ الثُّوارُ كثـيرًا لتهديداتِ رئيسِ الشُّرطة، ذهبَ مُسرعًا إلى رئيسِ التَّسعير والَّذى كان يحمل لقبًا وهوَ «حاكم طيبـة»، اسمه «بتاح - إم - حب». لمْ يتَّخذْ حاكمُ طيبة أىَّ قرارٍ فى حينِهَا ولكنَّه انتظرَ إلى اليوم التَّالى وأعلنَ أنَّه سوفَ يزورُ غربَ طيبة ليُعطىَ الثُّوارَ المصريينَ كميَّات من البذورِ، وهوَ مَا جعلَ رئيسَ الشُّـرطة يذهبُ إلى العمالِ وينصحُهم بالذِّهابِ إلى بيوتِهم واصطحابِ زوجاتِهم وأولادِهم إلى معبدِ الملك «سيتى الأول» بقيادتِهِ هو، و هوَ مَا يجعلُنا نَصِفُ هذا القائدَ الشُّرطىَّ بالذكاءِ والدَّهاء فى آنٍ واحدٍ، وذلك للأسبابِ الآتيةِ:

١ - بهـذا الفعـلِ يكونُ رئيسُ الشُّـرطةِ قد وطَّد علاقتَـه الطَّيبة بالثوارِ المضربينَ وكسـبَ ثقتَهم وودَّهـم وحبَّهم وتقديرَهـم لأن مجهوداتهِ لمساعدتِهم قد أثمرتْ.

٢ - بذلكَ يكونُ الثُّوارُ كلُّهم تحتَ نظرهِ ومراقبتِهِ الشَّخصية بحيثُ لا ينفلتُ الزِمَامُ وتُصبحُ الثَّورة المحليةُ منتشرةً فى أرجاءِ البلادِ.

٣ - تَجهيز استقبالٍ شعبىٍّ يليقُ بالحاكمِ الَّذى يرأسُه. ورغمَ أن العمالَ حصَلوا على مقرَّراتِهم إلَّا أنَّهم واجهوا نفسَ الموقفِ المتأزِّم فى الشَّهر الَّذى كانتْ

انتفاضتهم خلاله، فقاموا بمظاهرةٍ أخرَى. وهكذا أصبحتْ المُظاهرات صفةً غالبـةً على غربِ الأقْصُر، والجديُـر بالذِّكر هنَا أن العمالَ كانوا يحصلونَ على بذورِهم كلَّ مرةٍ.

ملاحظاتٌ تاريخيَّة مهمةٌ:

١ - تمَّ تأريـخُ الثَّـوراتِ والإضْراباتِ المتتاليةِ على مدَارِ شـهورٍ عديدةٍ عن طريـقِ كاتبِ المقْبرةِ «آمون - نخت» الَّذى حاولَ ونجحَ فى تهدئةِ الأمورِ تـارةً، وإقناعِ المسـئولينَ بإعطَاءِ الثُّوارِ العمالِ حقوقَهم، ممَّا يشـيُر إلى وجودِ فكرةِ المؤرِّخِ فى مصرَ القديمةِ. وفى هذه الحالةِ اشـتركَ المؤرِّخُ فى الثَّورةِ بالفعلِ.

٢ - لمْ يتَم التَّعامل مع الثوارِ بطريقةٍ عنيفةٍ فى أغلَب الحالاتِ، ولكنَّنا لديْنا حالةٌ موثَّقةٌ عندمَا صرخَ أحدُ العمالِ واسمُه «موسى بن عحا نخت» مُهدِّدًا أنَّه لو أُجبرَ هوَ وزملائه علَى فَض الإضرابِ والاعتصامِ فسوفَ يقتحمُ أحدَ المقَابر الملكيَّة. وقد عُوقبَ علَى هذَا.

٣ - الواضـحُ من مجرياتِ الأمورِ أنَّ المصرىَّ القديـمَ كان يتمتَّعُ بحريَّةِ الفكرِ والتَّعبيرِ عن الرَّأى إلَّا فى حالاتٍ اسـتثنائيةٍ. ومن أحسن الأمثلةِ لحريَّة الكتابـةِ والنَّقدِ مَـا كتبَه المدعو «خو - ان - أنـوب» (ومعنى اسمِهِ «ليتَ أنوبيـس[1] يحميكَ») المُلقَّـب بالفلاحِ الفصيحِ الَّذى كتبَ وأرسـلَ تسـعَ

(١) أنوبيس هوَ ربُّ الجبَّانة والتَّحنيط الأسطوريّ الَّذى كان يظهرُ فى الرُّسوماتِ والتَّماثيل على شكلِ حيوان ابنِ آوى.

شكاوىَ بهَا نقدٌ لاذعٌ يؤكّدُ غيابَ العدَالةِ فى الحُكْم وينصحُ كبارَ المسْئولين بالحكومةِ والملكَ نفسَهُ بالانحياز للضُّعفاءِ. يقولُ الفلاحُ الفصيحُ فى إحدىَ شكَاواه: «لقد نُصِّبتَ لتسمع الشَّكاوى وتفصل بين المتخاصمين وتضرب علَى يدِ السَّارقِ ولكنَّك تتحالفُ معَ السَّارقِ»، ثُمَّ ينقدُ بجرأةٍ قائلًا: «أليس من الأمورِ السَّيئةِ أن يميلَ الميزانُ، وأن تنحرفَ وزْنةُ الرَّصاص، وأن يصبحَ الرَّجلُ الدَّقيقُ العادلُ شخصًا مُشوَّشًا؟».

وقد أكَّدَ لنا المؤرِّخُ القديمُ «ديودور الصقلى»: «أن القوانينَ المصريَّةَ فى منتصف القرنِ الأوَّل قبلَ الميلادِ كانتْ مُدونَّة فى ثمانيةِ كتبٍ توضع بجانبِ القضاةِ» ممَّا يُثبتُ وجودَ عدالةٍ فى المجتمع المصرىِّ القديم.

٤ - لمْ نقرأْ عن حوادثِ حريقٍ أو تدميرٍ أو أعمالِ سلْبٍ ونهبٍ على مدَارِ سنتين وأكثر وهىَ مدةُ الثَّوراتِ والإضراباتِ الَّتى قامَ بها العمالُ فى أواخر سنى حُكْم الملكِ رمسيس الثَّالث، ممَّا يؤكّدُ أنَّه رغمَ حمَاسة العمالِ وغضبِهم فى كثيرٍ من الأحيانِ من نظام صرفِ المرتبَاتِ واعتراضِهم عليهِ إلَّا أنَّهم لمْ يُدمروا المعابدَ أو يحرقوا المقابرَ أو يُحطموا التَّماثيلَ والمسلَّاتِ. لمْ تُذكرْ حادثةُ سطوٍ علَى الشُّونِ والمخَازن. ساعدَ علَى هذا استجابةُ المسْئولين للثُّوار ومطَالبهم العَادلة. ونستحضرُ هنا المقولةَ الشَّهيرة: «إذا أردت أن تُطاع فأْمرْ بمَا هوَ مستطاعٌ». تذكّرنى هذه الملاحظةُ بصرخةِ «سلميَّة، سلميَّة» الَّتى كانَ يُنادى بها الثُّوار خلالَ ثورةِ ٢٥ يناير، والنِّداءِ الَّذى ابتدعَه المصريونَ العظماءُ فى يوم ٢٩ يناير ٢٠١١ «اللى يحب مصر..

ما يحرقش فى مصر». وقد شـارك المؤلِّف فى هذه المظاهرة الَتى حدثتْ فى قلبِ ميدانِ التحريرِ.

٥ – فـى إحدى الثَّورات دافعَ الوزيرُ «تا» عن نفسـهِ قائـلًا: «ألمْ أُعْطِكُم أكثرَ ممَّا أعطاكمُ الوزراءُ الآخرونَ»، ثُمَّ طمأنهم قائلًا بحنكةِ سياسيَّة أنَّه سوفَ يوزعُ المقرَّرات عليهمُ بنفسِهِ.

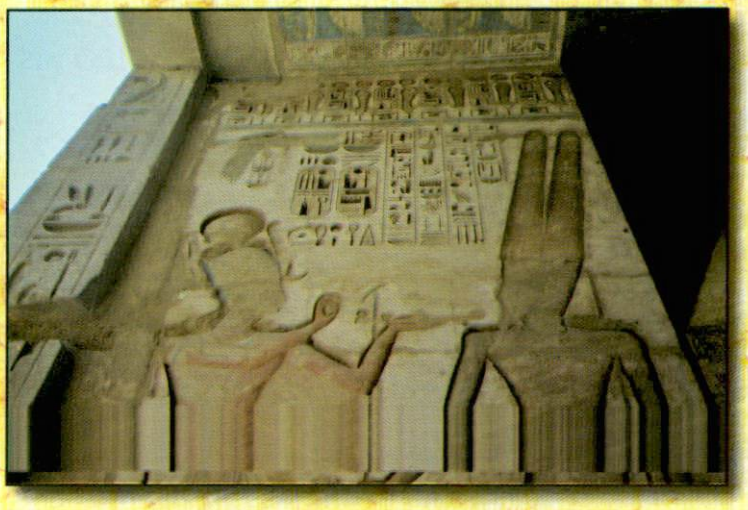

رمسيسُ الثَّالثُ يقدِّمُ البخورَ للرَّبِّ الأسطوريِّ

٦ – نلاحـظُ الشَّـبه الكبيرَ فى اختيار الثُّوار القدمَـاء للتَّوقيت المقصودِ للقيَام بالحركـةِ الثوريَّةِ قبلَ احتفالِ الملكِ رمسـيس الثَّالث بالعيـدِ الثَّلاثينى لاعتلائِه العرشَ، وهى أهَم احتفاليَّة للملكِ خلال سـنى حكمِهِ كلِّها، وما حدثَ فى عام ٢٠١١ عندما اندلعتْ الثَّورة يومَ عيدِ الشُّرطة فى ٢٥ يناير، مِمَّا يزيدُ من تأثير الواقعةِ على الأجوَاء المحيطةِ.

٧ – يذكِّرُنا الحكيمُ المصرىُّ القديمُ «بتاح حتب» بطريقةِ تعامُلِ الموظَّف مع أفرادِ الشَّعب قائلًا: «إذا كنتَ فى منصبٍ بحيثُ يقتربُ النَّاسُ إليكَ (بمعنى تتعاملُ مع النَّاس)، فكُنْ مؤدَّبًا واستمعْ إلى شكوى الشَّاكى، ولا تعترضْ كلماتِهِ حتَّى يُخْرِج كلَّ مَا فى قلبهِ، وكلَّ مَا جاءَ ليقولهَ الرَّجلُ المهمومُ.. فإنَّ الكلمةَ اللطيفةَ تضىءُ قلبَه..». يالهَا من كلماتٍ توُزنُ بمثقالِ ذهبٍ ويأليتَ جميعَ الموظفين والمسْئولين يتَّبعون نصائح الوزيرِ «بتاح حتب» والَّذى كانَ يعملُ كعمدةٍ لمدينةٍ فى زمنِ حُكمِ الملكِ «إسيسى» وهوَ من ملوكِ الأسرةِ الخَامسةِ بالدَّولةِ القديمةِ وقد حكَمَ من عام ٢٣٤٠ حتَّى عام ٢٣١٢ قبلَ الميلادِ.

كيفَ انتهتْ الثَّورةُ؟

نجحَ العمالُ فى الحصولِ على حقوقِهم فى كلِّ مرَّةٍ ثَاروا وأضْربوا فيهَا ضدَّ تأخيرِ صرفِ مقرَّراتهم. ولقد نجحَ كاتبُ المقبرةِ «آمون – نخت» فى أكثرِ الحَالاتِ فى توصيلِ صوْتهم إلى الوزراءِ والمسْئولين والحصولِ لهم علَى حقوقِهم.

ولكنْ وفى إحدىَ الحالاتِ لمْ تكنْ البذورُ كافيةً للعمالِ فانْدفعوا فى ثورةٍ جديدةٍ مُعتادةٍ ولمْ يحاولْ «آمون – نخت» إيقافَهم ، ورُبَّما يكونُ السَّببُ هو أنَّه وجدَ العمالِ علىَ حقٍّ تامٍّ وبدأَ رؤساءُ العمالِ ينضمونَ إليهمُ، فأصْبحوا قوةً لا يُستهانُ بهَا. وجلسَ الثُّوارُ بجانبِ المعبدِ (وفى حالةٍ سابقةٍ جَلسوا داخلَ فناءِ المعبدِ)، والجلوسُ هُنا له مغزىَ الإضرابِ والامتنَاعِ عن العملِ ممَّا يؤدِّى

إلى كارثةٍ، فالملكُ لنْ يكونَ سعيدًا بوزرائه المسْئولين عن العمالِ إذا وصلتْ إلى مسامِعِه هذهِ الأخبارُ. من ناحيةٍ أخرىَ فإن لفظَ «جلوس» هذا لَهُ دلالةٌ وعلاقةٌ بمَا يحدثُ فى العالمِ فى القرنِ الواحدِ والعشْرين الحَالى، فهوَ نفسُ اللفظِ الَّذى يستخدمُ فى اللغاتِ الأجنبيَّةِ، فإذَا بحثتَ فى القاموسِ الإنجليزىِّ ستجد أن لفظ «sit – in» أو «sit down» لهَا معنى الإضرابِ. هكذا كانَ ومازالَ تأثيرُ الحضَارةِ المصريَّةِ القديمةِ على الحضَارات قديمًا وحديثًا.

لعبتْ الظُّروفُ فى هذه المرةِ دورًا إيجابيًا لصالحِ العمَالِ، فقد كان حاكمُ طيبةِ يمرُّ بالمكانِ القريبِ من الإضرابِ ففرحَ العمالُ الثُّوارُ بهذَا وأخذوا ينادونَ عليهِ واعتلتْ صيحاتُ النِّداءِ لكى يصلوا بطلباتِهم الفئويَّة.وبسرعةٍ قامَ الحاكمُ بإصدارِ أوامرِه بصرفِ كميَّاتٍ كبيرةٍ من الغلالِ والبذورِ ليعودَ الهدوءُ لفترةٍ.

وفى ليلةِ العيد الثَّلاثينى للملكِ طالبَ العمالُ بنصيبهم من الخبزِ الَّذى كانَ يُوزعُ كهديةٍ بمناسبةِ عيدِ «سد»، وعَادوا للهدوءِ مرةً أخرىَ عندمَا تلقَّوْا الهباتِ الملكيَّةَ المتعلقةَ بالاحتفاليةِ.

ولكنْ استمرتْ الثَّوراتُ السَّاخنةُ حتَّى أن آخر ثورةٍ فى عصرِ هذَا الملكِ قامتْ قبل خمسةِ عشَر يومًا من وفاتِه. ورغمَ انتهاءِ فترةِ حُكْمِ الملكِ رمسيس الثَّالث بوفاتِه إلَّا أن مبادئَ الثَّورةِ ضدَّ الظُّلم وغيَابِ العدلِ وسوءِ المعاملةِ عاشتْ فى موروثِ الإنسَان المصرىِّ، وقدْ بدا هذَا جليًّا عندمَا قامتْ حركاتٌ ثوريَّةٌ وإضراباتٌ عماليَّةٌ مماثلةٌ فى عصورٍ لاحقةٍ مثل عصر الملكِ رمسيس التَّاسع والعَاشر. ولكن، كانتْ دائمًا بدايَاتُ هذهِ الثَّورات سلميَّةً والمطالباتُ بطريقةٍ حضاريَّةٍ، ولم يكنْ الالتجاءُ إلى التَّظاهر إلا عندمَا لا يُستجاب إلى المطَالب

أو تجاهُـل الحالةِ المتردِّية الَّتى تصلُ بالعاملِ وعائلتـه إلى حياةٍ صعبةٍ وغيرِ آدميَّـةٍ. تعالوا معى نتذكَّرُ مَاذا قالَ العاملُ صارخًا فى وجهِ إدارتِهِ المسـئولةِ عنْ صَـرْفِ مرتبِهِ: «لايوجدُ فى منازلنا مَلابس أو موادُّ دهنيةٌ (مثل السَّـمنِ الآنَ) أو سمكٌ (وهذه كارثةٌ اقتصاديَّة على مسـتوى خطيرٍ وذلكَ لأنَّه كانَ من السَّـهلِ أن تحصلَ على السَّـمكِ فى ذلكَ المكانِ لقربِهِ من نهرِ النِّيلِ وإمكانيةِ صيـدِهِ بالشِّـباك أو المصَايد المصنوعةِ على هيئةِ قفصٍ مـن الخوصِ والبوصِ أو السِّنارات) أو خضرواتٌ.

ولذاَ وجدَ العاملُ المصرىُّ القديمُ المُجدُّ أن كلَّ هذهِ الأسـبابِ هى أكبرُ دليلٍ علىَ تدنِّى الحالةِ الاقتصاديةِ للعائلةِ المصريَّة فى هذا المكانِ، ومن ثَمَّ وجبَ عليهِ الاعتراضُ والمطالبةُ بحياةٍ كريمةٍ وعادلةٍ، وهوَ مَا فعلَه وأصرَّ عليهِ حتَّى حصلَ على حقوقِهِ.

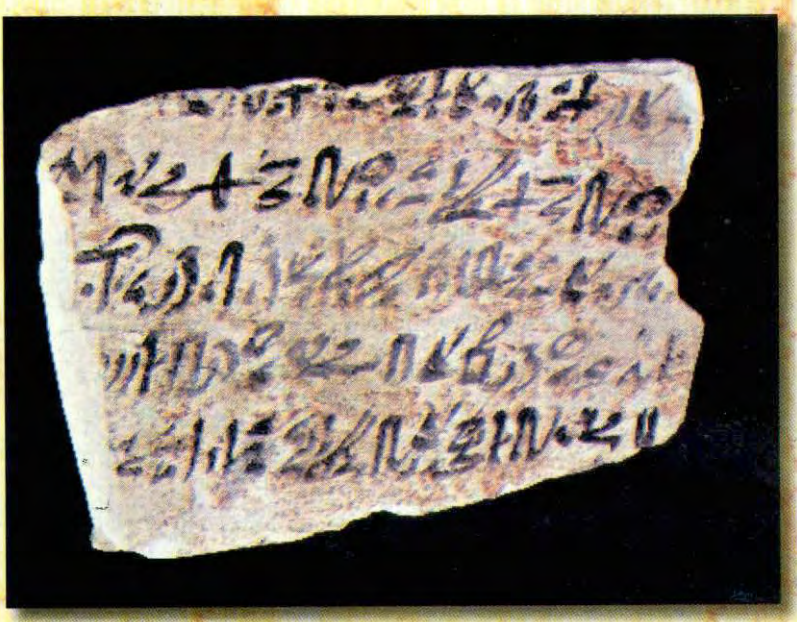

نصوصُ توثيقِ الثَّورةِ – مُتحف نيكولسُون بسيدنى أستراليا

توثيقُ الثَّورة:

حبُّ المصرىِّ القديمِ للتَّوثيق جعلَ أحداثَ هذهِ الثَّورةِ تعيشُ حتَّى يومنَا هذا. تمَّ الكشْـف عن نصوص مكتوبةٍ بيدِ كاتـبِ المقبرة «آمون - نخت» والَّذى أطلقتُ عليهِ «مؤرِّخِ الثَّورة». إما على ورق البردىِّ مثل نصوصِ الإضرابِ الأوَّل فى تاريخِ الأمـمِ المكتوبِ على برديَّة يُطلقُ عليهَا «برديَّة تورين» لوجودِهَا الآنَ فى مُتحف تورين بإيطاليَا. أيضًا تمَّ ترجمةُ نصوصٍ كُتبتْ على شقافاتٍ (قِطع حجريَّة صَغيرة أو قطع فخاريَّة) موجودةٍ الآنَ فى متاحف مصرَ وبرلين وسيدنى بأستراليا.

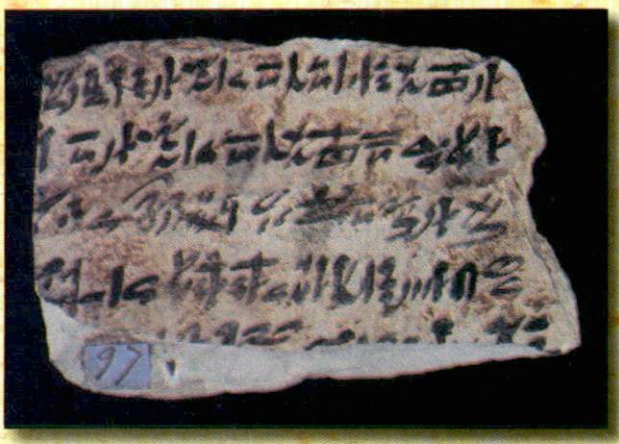

مَحْو نصٍّ أحْمر قديم وكتابةُ أحداثِ الثورةِ فوقَه بسيدنى - أستراليا

النُّصوص كُتبتْ بالخطِّ الهيراطيقىِّ (رموزٌ مختصرةٌ وغيرُ محددةِ المعالم الدَّقيقة مثل الهيروغليفيَّة، وكانَ الكهنةُ يستخدمونَها فى كتاباتِهم ومواثيقِهم).

وقد لُوحظ علَى بعضِ شـقافاتٍ من الحَجرِ الجيرىِّ أن سطحَ الحجرِ المَكتوب عليـهِ بالحبرِ الأسـوَد كانَ مكتوبًا عليهِ من قبلُ بالحـبرِ الأحمَر ولكن تمَّ محوُ النَّص الأحمَر لكى يُعادَ استخدامُ الشقافةِ.

منازلُ المعيشةِ على اليمينِ والجبَّانةُ على اليسارِ - دير المدينة

اكتشافُ دير المدينة:

بـدأ الاهتمـامُ بالتنقيبِ والبحثِ فى ديرِ المدينةِ فى عَـام ١٩٠٥ عن طريقِ عَالِمِ الآثارِ الإيطالىِّ الكبير «إيرنيسـتو سكيابارِيللى» واستمرَّ فى الكشفِ عن آثارِهَا حتَّـى عَام ١٩٠٩. ثُمَّ جـاءَ العالِمُ « برنـادر برويار» فعملَ فـى مدينةِ العمالِ وجبانتِهم من عَام ١٩١٧ حتَّى عام ١٩٤٧.

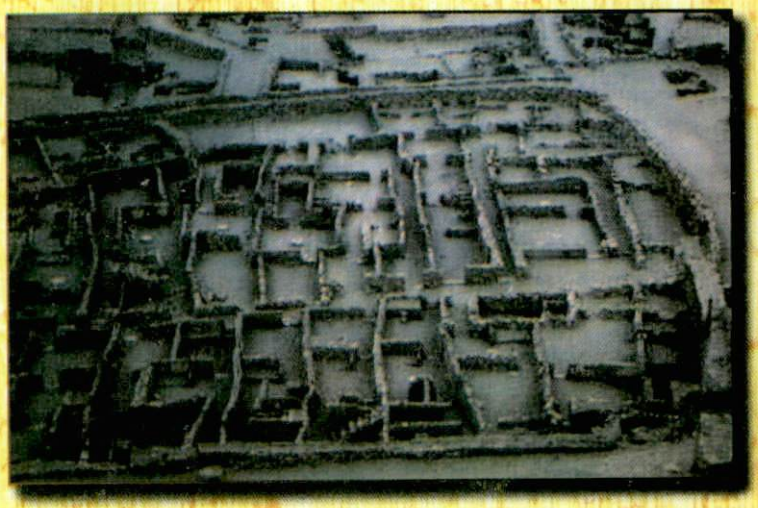

منازلُ - ديرِ المدينةِ